

التجديد بين الشعر العباسي والشعر المعاصر

بقلم الدكتور علي الزبيدي

حياته المديدة من احداث .

ولعل هذا ما دفع صديقي الدكتور سهيل ادريس الى الاهتمام بعقد موازنة بين هاتين الثورتين التجديديتين . والحق ان الفكرة قد اعجبتني لاسباب عديدة منها التشاؤم والمقاومة العنيفة التي يبديها المحافظون والمتعصبون بحجة المحافظة على التراث وترك كل تجديد بما سموه الغزو الفكري الاجنبي ، او التخوف المبالغ فيه من تبليل القيم والمقاييس والخبرات الفنية والادبية وافتراس ضياع ادبائنا وشعرائنا في تيه فني وفكري طويل الامد . ومنها بل من أهمها حرص السلفيين على ممتلكاتهم الثقافية والادبية الموروثة وتطويرهم من تزايد اهتمام الجمهور بالشعر الحر على الاخص . ونحن اذ نقارن بين حركة التجديد في الشعر العباسي والشعر الحديث في مقال عاجل كهذا لا نريد الانحياز لجهة ولا تفصيل القول في خصائص الحركتين ، بل لنطمنن الخائفين والمتوجسين ، وتؤكد لهم ان الثورة التجديدية المعاصرة لن تضر ادبنا ولن تضيع تراثنا الشعري ولن تشوه فنونه واغراضه بل سيزداد شعرنا رونقا وبهاء ، بعد ان يذهب الزبد جفاء .

والصراع بين المحافظين والمجددين قديم ، وقد كان ظهور الاسلام اول من اثار خلافا بين شعراء المشركين وشعراء المسلمين ، تناول الغاية من قول الشعر والمعاني التي تضل طرقها فيه وان لم يمس هذا الخلافا اطاراته الفنية ولم يظهر لغته الشعرية الا بقدر ضئيل . وظهرت معالم التجديد بشكل اوضح في العصر الاموي كما بين الباحثون (1) ولكن الصراع بين القديم والجديد بلغ أشده في القرن الثاني للهجرة . وقد اعتبر الباحثون ابا نواس زعيم الثورة التجديدية رغم اختلافهم في تحديد ابعاد هذه الثورة وسعتها ومدى تأثيرها في فن الشعر العربي بصورة عامة . قطه حسين الذي تناول تطور الشعر العباسي في الفاظه ومعانيه يقرر ضالة التطور والتجديد فيه بقوله : هذا كل ما عرف اهل الشرق العربي من اختلاف بين القدماء والمحدثين ، وهذا كل ما انتجه الخلافا ، وهو ليس بالشيء الكثير ، فلم يتغير الشعر العربي في موضوعه ولا في صورته ولا في نوعه ، ولم

ما يزال الخلافا قائما بين انصار الشعر الحروانصار الشعر التقليدي او العمودي . ومع ان الشعر الحر قد خرج من مرحلة التخبط والحيرة ، ووجد كثيرا من الضوابط العروضية واللوازم الموسيقية ، ونال الحرية الفنية الواسعة التي جعلته يتصرف بالتفعيلات والاوزان والاسباب ، وانتزع اقطابه من النقاد اعترافا بان شعرهم من الشعر الحق ، لا من سجع الكهان ، مع هذا كله ما يزال الخلافا يتفجر بين الحين والآخر ، يثيره ما ينشر احيانا من رقي وتعاويد وطلاسم تحسب نفسها من الشعر الجديد او ما يظهر من مقالات (نقدية) تزدهم بالالغاز والمعميات ، معاودة الهجوم على الشعر التقليدي ، مكررة ما قراه وسمعه الناس طيلة نصف قرن ، منذ ايام جماعة الديوان وابولو . وما يطرق شيء من هذا اسماع المحافظين والمعجبين بالشعر العمودي حتى يردوا الصاع صاعين ، وينتهزوا الفرصة لشن هجمات مقابلة تستهدف ابعاد الناس عنه او ابعاده عنهم ، وطرد هذا الشعر الجديد جيده وردئه ، من جنة الشعر او جحيمه ! ولعل اول ما يرجوه القارئ العربي ، ان يرحمه المتخصصون ، فلا يكرروا اليوم ما قيل أمس عشرات بل مئات المرات ، وان لا يهبطوا بمستوى الخلافا المثمر بين القديم والجديد الى الابتدال والاسفاف ، وان لا يتطرف الطرفان ، وان يستفيدوا من قول لابن قتيبة أطلقه قبل اكثر من اثني عشر قرنا : « ولا نظرت الى المتقدم منهم (يعني الشعراء) بعين الجلالة لتقدمه ، والى المتأخر بعين الاحتقار لحدوثه ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين . . فاني رايت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده الا انه قيل من زمانه او انه راى قائله الخ . . . » (1) وكان قول ابن قتيبة هذا صدى للخلافا بين القديم والجديد في عصره وللمعركة الفنية بين الخارجيين على عمود الشعر العربي وعلى رأسهم ابوتمام ، وانصار عمود الشعر القديم ، على ما يوجد من اختلاف بين مدلول كلمة عمود الشعر في القرن الثالث وكلمتي الشعر العمودي والشعر الحر في عصرنا هذا . وما يلاحظ من وجوه اختلاف اخرى او تشابه تجعل حركة التجديد في العصر العباسي وثورة التجديد في العصر الحديث اكبر حدثين في تاريخ الشعر العربي هما على كثرة ما في

1 - انظر « حديث الادب » لطف حسين و « التطور والتجديد

في الشعر الاموي » لشوقي ضيف .

1 - انظر مقدمة « الشعر والشعراء » لابن قتيبة .

يتغير في لفظه ومعناه الا قليلا جدا . الخ . (١) . وقد تبنى رأي طه حسين هذا كثيرون في طليعتهم شوقي ضيف ، (٢) والمرحوم احمد امين الذي عزا هذه الضالة المزعومة في تطور الشعر وتجديده الى ضعف تأثير الثقافات الاجنبية في الشعر العباسي قال : « فلئن كانت الثقافات الاجنبية في العلوم واضحة الاثر ، فآثرها في الشعر خفيف ، ولو كان شديدا قويا لادخلوا على بحور الشعر بحورا فارسية ويونانية ، ولتحرروا احيانا من القافية ، ولادخلوا ضرب الشعر القصصي والتمثيلي ، ولرسموا طريقة جديدة لنهج القصيدة . . ولحدثت ثورة في الادب والشعر فنقلته نقلة جديدة كما حدث في العلوم . نعم ، حدث تغيير في دخول بعض الفنون الشعرية واصطبغاها بصبغة الحياة الاجتماعية ونحو ذلك ، ولكنه تغيير طفيف لا يكاد يرى بالمجهر ! » (٣) .

ولن نناقش هذه الآراء هنا بل نكتفي بالقول بأن مشاكل التاريخ الادبي لا تبحث بهذا الاسلوب وهذا التعميم ، فليس في التاريخ ليت ولعل ولو ! وليس مقياس التطور اشتراط وجود الشعر التمثيلي والقصصي ، فأسلافنا لم يطلعوا على هذين الفنين الشعريين ولم يعرفوهما اذ كانا مطمورين في عصرهم ولم تعرف تمثيلات اليونان الا بعد قرون حتى ان مترجمي العرب الذين عربوا كتاب « فن الشعر » لارسطو لم يفهموا مدلول كلمتي تراجيديا وكوميديا (٤) . وليس معيار التطور بعد هذا ملازمة التجديد الادبي للتقدم العلمي . اما الشعر الفارسي فلم يكن له كيان فني ولغوي واضح يومذاك ، ولم يكن بمستوى التاريخ والحكم والامثال الفارسية التي تركت تأثيرا واضحا في الادب العربي . اصف الى ذلك اننا لا نستطيع ان نحمل التطور اكثر مما تحتمل ظروف العصر الذي يحدث فيه ولا يصح ان نطبق معايير عصرنا على الماضي البعيد . ولكن آراء طه حسين ومن تأثروا به ذاعت وتبناها الكثيرون لا لكونها قاطعة او صحيحة من الناحية التاريخية ، بل لانها كانت تعبيرا قويا عن رغبة المعاصرين لدفع شعرنا الحديث نحو ثورة تجديدية تحقق متطلبات ومطامح وحاجات النهضة العربية الجديدة .

لقد لاحظ النقاد القدماء بما في ذلك المتعصبون للشعر القديم ما في الشعر العباسي او شعر المولدين ، كما سموه ، من خصائص جديدة ومذاهب مستحدثة ابتعدت بكثير من موضوعاته والفاظه ومعانيه عن النماذج الجاهلية والاسلامية الاولى . والحق ان حركة التجديد اظهرت بوادرها القوية الاولى في شعر بشار بن برد وبعض

معاصريه من شعراء البصرة والكوفة . ولهذا كاد يجمع النقاد على ان بشار زعيم المولدين ورأس المحدثين وكبيرهم واستاذهم . الخ ولم يسبقوا على ابي نواس اوصافا كهذه رغم اعترافهم بتقدمه وتفوقه على معاصريه . ولم يمر النقاد والادباء مرورا عابرا بكلمة المولدين او المحدثين بل فسروا مدلولها وعددوا الخصائص الفنية التي تنطوي عليها ، وبهذا رسموا الخطوط العريضة التي كشفت ابعاد التجديد في الشعر المولد واوضحت وجوه الاختلاف بينه وبين الشعر القديم . فالمولد هو المحدث من كل شيء كما جاء في لسان العرب (١) « ويسمى الكلام مولدا إذا استحدثه ولم يكن من كلامهم فيما مضى » (٢) وكان السائد عند اهل اللغة والادب ان المولدين قد توسعوا في الالفاظ ولكن توسعهم في المعاني كان اظهر واكثر ، حتى قال ابن جنى « المولدون يستشهد بهم في المعاني كما يستشهد بالقدماء في الالفاظ » . . ويؤيد صاحب العمدة هذا الكلام الذي اورده لابن جنى ويؤكد : لان المعاني اتسعت في الناس لانتساع الناس في الدنيا الخ (٣) . . وكان اختلاط العرب بالاعاجم وامتزاج الثقافات من الاسباب التي أدت الى تطوير الشعر المولد في الالفاظ والمعاني معا كما بين احمد امين نفسه في ضحى الاسلام (٤) وقد ادرك عبد القاهر الجرجاني ما للذوق من اثر في هذا كله كما لم يفته ما يسميه نقادنا المعاصرون بالتجربة ، لعلاقة العفوية بين الشكل والمضمون او اللفظ والمعنى ، فأشار الى تطور اللفظ بتطور المعنى وبالعكس . وهذا ما يبرر به مجددو الشعر الحديث دعوتهم الى توسيع لغة الشعر والتغاضي عن الاخطاء اللغوية والصرفية البسيطة التي يقعون فيها ، كما فعل عبد الرحمن شكري وميخائيل نعيمة وجبران وعريضة .

وقد ذكرت الاستاذة نازك الملائكة أهمية هذا العامل في تجديد الشعر المعاصر ، ولكنها اضافت ان توسع المضمون بتوسع الفكر والذوق قد استلزم اباحة التصرف بالعروض ، وهذا ما دفعها هي وزملاءها الى ابتداء التصرف بالتفصيلات العروضية بالصورة التي عرفناها في الشعر الحر (٥) . والواقع ان القدماء لم يفهم ادراك هذا ايضا وان لم يتحدثوا فيه بصراحة المعاصرين . فقد حاول ابو العتاهية اضافة وزنين الى العروض . وتصرف الشعر الشعبي القديم في الاوزان ، فظهرت اوزان المواليا والدوبيت وكان ما كان ، وغيرها ، كما ظهر البند في الشعر العراقي المتأخر ، وان لم يعترف بها النقاد الرسميون . وظهر الموشح للدوافع نفسها ، وعندني ان هناك ظاهرة اوسع من هذا واكثر اهمية واقرب الى ما حدث في

١ - لسان العرب ٤ / ٤٨٥
٢ - تاج العروس ٥ / ٥٤٣
٣ - العمدة ٢ / ٢٣٦
٤ - ضحى الاسلام ١ / ١٦
٥ - انظر « قضايا الشعر المعاصر »

١ - حديث الاربعة ٢ - ٨
٢ - انظر مقدمة كتابه « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » .
٣ - ضحى الاسلام ١ / ٢٧٨
٤ - انظر كتاب « فن الشعر » لارسطو للدكتور عبيد الرحمن بدوي وتعليقاته عليه

الشعر الحديث وهي اتجاه الشعر العباسي ولا سيما العنابي منه إلى الأوزان القصيرة والمجزوءة . وهذا يدل على أن الشعراء قد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى ذلك بحكم المعاناه والممارسة والتكيف للتجارب الجديدة والانصياع لضعف الحصري المتزايد كالذي عليه حاله الشعراء المعاصرين . وإن تطور شعر الرجز وطهور اتجاهات جديدة فيه نتيجة للسبب ذاته . فقد وجد الشعراء أن الأرجوزة تصلح للشعر التعليمي كما وجدوا أنها خير ما يصلح للموضوعات التي تكثر فيها الحاجية إلى بسط الأقدار والتامل والحكم والامثال كما فعل أبو العتاهية في أرجوزته الشهيرة « ذات الامتال » ، وكما فعل ابن المعتز في أرجوزته المعروفة التي صور بها ماضي الحياة والسياسة في عصره . وقد كثر النظم بعد ذلك على البحور التي نحتمل طول النفس السعري لما فعل ابن الرومي وابن سكرة الذي قيل أنه نظم قصيده من أربعة آلاف بيت في زيجته . ويدورنا عمله هذا بالشاعر الفرسى بودليس .

أما في الشعر الحديث فقد ثبت أن الرجز أصلح البحور للشعر التمثيلي ، أما الشعر المرسل فقد فشل في هذا الميدان فقد (اضاع المنسيتين) إذ عجز عن التعويض عما تتطلبه المسرحية من بسط الأفكار بشعر موزون . . يجذب الجمهور ببلاغته وموسيقاه وترك النثر الذي يصلح للمسرح أكثر من غيره . وما يقال عن وضع الأوزان في الشعر العباسي والشعر المعاصر يقال أيضا عن تطور الموضوعات في شعر ثلاث العصور . إذ كان تطور الموضوعات أول موجه طائفة في الشعر العباسي ، فكان بشار أول وأشهر من مارس التوسع فيها وأشار إلى ذلك صراحة . ونجح بشار إذ لم يبق غزل أو مغنية أو نائحة في البصرة إلا وراح يترنم بشعره ، كما روى صاحب الأغاني . وسار الشعراء على نهجه حتى إذا جاء أبو نواس رفع عقيرته بذلك وأحدث ضجة كبيرة تمثلت في حملته الساخرة على المتمسكين بوصف الطول . وكانت هذه الظاهرة أول ما أحس الناس بضرورته في ذلك العصر وأول ما فطنوا إليه أيضا وطالبوا به في عصرنا هذا . كما أكثر النقاد القدماء من الإشارة إليها . قال ابن رشيق « وليس بالمحدث من الحاجة إلى أوصاف الأبل ونعوتها والقفار ومياهاها ، وحمر الوحش والبقر والظلمات والوعول وما بالأعراب من أهل البادية لرغبة الناس في هذا الوقت عن تلك الصفات » . . الخ (١) .

وعندي أن دور أبي نواس وبعض معاصريه في تطوير الموضوعات كان أوسع وأخطر ، فالقضية لم تكن مجرد استجابة لحاجات العصر بتقديم صور من حياة الناس في القرن الثاني وترك القديم للقدماء والصحراء وما فيها للأعراب . إذ يستطيع الشعر المنظوم وفق النماذج القديمة أن يقدم هذه الصور أيضا . فشعر

أبي نواس ، وقبله شعر بشار طور شكل الشعر ومضمونه كما نقول اليوم ، إذ تطأنا في ديوان أبي نواس شخصية جديدة للشعر تختلف عن شخصيات دواوين سابقيه أن صح هذا التعبير . فصور أبني نواس الشعرية في خمرياته تختلط وتمتزج وتتفاعل مع مشاعره واحاسيسه وأرائه في الحياة والناس . ولم يخطيء بعض الباحثين المعاصرين كاللكتور عبد الستار الجوارى واللكتور محمد مصطفى هداره (١) عندما قالوا بأن شعر أبي نواس يعبر عن ذاتية قوية ، واعتبروا الذاتية من الاتجاهات الجديدة الواضحة في الشعر العباسي مستشهدين بشعر كثير لعدة شعراء . وكان الاتجاه نحو الذاتية القوية وما يزال من أبرز خصائص واتجاهات الشعر العربي المعاصر ابتداء من شعراء الديوان وأبولو والرابطة القلمية في نيويورك حتى هذه الساعة . وجل عنت ما يعال حنون العصص النواصي الحمري وبنار الصور فيه . فآثر الدين بحدوثها عن هذا لم يحكموا على شعر أبي نواس بمعايير النقد الحديثه . فالصوره الشعريه عند أبي نواس ليست مسنعه عن المعال بالخمرة وبهالكه عليها وحبه العميق لها . بل هي ، اعني الصوره ، جزء لا يتجزأ من (الشعر) في القصيده الحمريه ، جزء متمزج فيه (التجربة) بتصوير المراتب وبالتسور والخيال والانعزال والاهتمام لتكون لها وحده شاعريه لا انفصام فيها . وطبيعي ان يعدس مضمون كهذا على (الشكل) ويندمج فيه ايضا بعد استطاع أبو نواس ان يطور لفه الخمر تطويرا عظيما ، فديوانه قاموس للخمره ، بل هو أوسع قاموس لها في اللغة العربيه ، ولكنه قاموس حي ليس فيه جمود القواميس ! فقد جمع فيه كل ما قدم وجد وجرى وشد من أسماء الخمره وصفاتها وأدواتها واحاسيسها . وتصرف بالصفة والموصوف حتى ابتدع مذهبا جديدا في صياغة العبارة الشعرية . وعندني أن هذا سر نجاحه وأنبهار معاصريه وغيرهم بشعره ، وسر تأثيره في لفه الشعر وصياغة لفظه ومعناه حتى تغلغل هذا التأثير إلى الشعر الصوفي والرمزي ولم تسلم منه أغراض الشعر الأخرى . وكاد أبو العتاهية يفعل مثل هذا في شعر الزهد لو كانت له عبقرية أبي نواس . ومع هذا فقد استطاع هذا الشاعر أن يستفيد من طاقات اللغة العربية ليدخل بالشعر إلى عالم التأمل في الحياة والموت . ولكن حركة الزهد كانت تنتظر امتزاج أفكار الزهد البسيطة بالفلسفة والتهاج مشاعرها الساذجة واهتماماتها الواقعية الأولى بالسلبية والهروب من الواقع واتصالها بالحب الإلهي والوجد والشوق والاستغراق الصوفي ليصوغ شعرا أكثر قوة واصالة من زهديات أبي العتاهية كما ظهر بعد ذلك في شعر التصوف .

ولو نظرنا إلى الشعر الحديث لوجدنا فيه الواسا

١ - انظر « شعراء بغداد » للكتور عبيد الستار الجوارى

و « اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني » لمحمد مصطفى هداره

ويكتسب ما هو مفيد من الموسيقى الغربية ، ولكنه لا يزال مرتبطاً بنظام العروض وتناظر تفعيلاته والاشطر، ولا بد للشعر الحر اذا اراد النجاح ان يشق لنفسه طريقاً الى المغنين والموسيقيين وان يرضى اذن الموسيقار والمغني كما يرضى اذن محبي الشعر الذي يقرأ ويسمع .

ولا بد لي من ان اشير ايضا الى ان التجديد في الشعر لا يعني مطلقاً النظم على اوزان جديدة ، فكم من شعر سخي في (تراثنا) القديم ! وكم من شعر جيد في شعر الشباب حتى عند الذين ما يزالون يتخبطون . وعوامل التجديد الظاهرة اذا تشابهت بين حركة قديمة وحركة جديدة فهذا لا يعني ان ثمراتها ستكون متشابهة ، فالشعر المعاصر أغنى من الشعر العباسي في نواح كثيرة . وسيزداد ثراء مع الايام ، والشعر العباسي أغنى من الشعر الجاهلي .

وبعد فان المقارنة او الموازنة بين ثورتي التجديد لا تنتهي في مقال او مقالين ولا يسعها كتاب صغير ولن تشفي الغليل اذا اقتصرنا على بعض الاتجاهات والمظاهر في شعر العصرين ، فالشعر كلمة صغيرة ولكنها سحرية تنطوي على عشرات العناصر والموضوعات تحتاج الى مقالات ومقالات ولعلنا عائدون .

علي الزبيدي

بغداد

صدر حديثاً :

اساس البلاغة

تأليف الامام العلامة

جاد الله ابي القاسم محمود بن عمر الزمخشري

طبعة ممتازة محققة

مجلدة بالقماش

الناشر : دار صادر - دار بيروت

الثمن ٢٥ ليرة لبنانية

من التوسع في نواح كهذه ، فالعبارة الشعرية المعاصرة تعتمر طافات اللغة العربية لتستقي منها الفاظاً وتنتزع من نموها وصرفها وعروضها المواد الحية لفن جديد يضطره توسع الموضوعات والافكار والمشاعر والظروف والحاجات المادية والمعنوية الى توسيع صياغته اللفظية والمعنوية . ويزداد هذا التوسع بسرعة البرق ، فقد غدا عالمنا صغيراً جداً تأممت فيه الافكار والمذاهب الفنية على نطاق عالمي . ولم يقتصر الامر على التعمد العائد من الفكر والعيش بل تعداه الى التبدل والتقلب ، بل الكفر بالمقاييس والتمرد على كل شيء . فقد تغيرت اكثر المفاهيم وانقلبت اغلب القيم وزرع تطور المواصلات والاساحة والحروب والنظم الاجتماعية والسياسية وشائج الحضارة الانسانية وروابطها المعنوية . وازدحم الوسط الفني لا العربي فقط بل في العالم اجمع بعشرات المذاهب والنظريات ، فاضطر اهل الفنون من شعراء ومصورين وغيرهم الى اعادة النظر في مجموعة القواعد والتقاليد والاساليب الفنية من حين لآخر . واهنا يحسن ان اعود الى الاشارة الى بعض ما اوردته نازك الملائكة في كتابها القيم . والحق ان هذه السيدة ينبوع ثمر جدير بالاجلال والاكبار لو مضت في اطلاقاتها الفنية والفكرية دون ان تتأثر بضغط السلفيين المتزايد . لقد اعجبني جدا اشارتها الى ما في الفن العربي القديم من تمسك مستمر بالتناسق وبتكرار التناسق . اي ما يسميه اهل الفن بالتناظر وشرحت تأثير هذا التناظر على الفن عامة بما في ذلك الشعر العربي والعروض على الاخص . ثم ذكرت ان من جملة الدوافع الى ظهور الشعر الحر ابتعاد الفن الحديث ولا سيما فننا العربي عن قواعد التناظر القديمة . وبينت ان هذا يستدعي ان يعيد الشعراء النظر في اوزان الشعر لتلائم القواعد والاساليب الفنية الجديدة . ويا لها من التفاتة فنية صائبة ، لان الشعر اليوم في سائر ارجاء العالم اول ما يتأثر بتطور المذاهب والاساليب الفنية المستحدثة . وفي هذا خير كما فيه شر ، ولكن الشعر العربي لا خوف عليه لرسوخ قواعده وقوة شخصيته . فالشعر العربي الحديث يتطور كما تطور الشعر العربي السابق . وثورة التجديد سواء جاءت في الشعر الحر ام في الشعر العمودي ماضية لتماشي التطور العظيم في الحضارة العربية والحضارة الانسانية . ومعذرة فان هذا المقال سيطول ولهذا اود ان اتعجل بكلمة لاهل الشعر الحر ، وهي ان الشعر لا ينظم للقراءة فقط بل يجب ان يصلح للغناء ، وان عروض الخليل كانت منسجمة كل الانسجام مع الحان الغناء العربي او الاصوات كما سماها الموسيقيون العرب . وكتاب « الاغاني » يضع امامنا الدليل الدامغ . والموسيقى العربية المعاصرة لا تستطيع ان تخرج على قواعد الموسيقى العربية القديمة ، فهي وريثها الشرعية . والذوق الغنائي العربي المعاصر وان كان يتغير ببطء ، ويجب ان يتغير